

مراجعة كتاب جاغوب هيكلت

تنشئة متشددين؟ الأسلمة والتعليم في الأراضي الفلسطينية مراجعة عوني فارس*

إعادة قراءة لمفهوم الأسلمة

أفضى الجدل الدائر مؤخراً داخل المؤسسات الثقافية الغربية حول دراسات الأسلمة إلى اهتزاز ثقة بعض النخب الأكاديمية بالقراءة السائدة للأسلمة في الأدبيات الغربية. وبدأت بعض الأوساط الثقافية الغربية بالتشكيك بالمنهجية البحثية لهذه القراءة وبأدواتها التحليلية وبقدرتها التفسيرية، كونها تحصر الأسلمة في مشهدها السياسي فقط، ولا تفسّر تعبيراتها المختلفة إلاّ أنها واقعة ضمن إطار أيديولوجي منغلق وعنيف، معارٍ للحضارة الغربية، وتمسكٍ بالتفسيرات القروسطية للشأنين العام والخاص.

يؤكد الكاتب في المقدمة بأنّه من أنصار رؤية تحليلية جديدة تتعامل مع الأسلمة كظاهرة مشبعة بالتنوع والغنى والتعقيد، تغطي مساحات أكثر شمولية، ولديها ما تقوله في المجالات الاجتماعية والثقافية والتربوية والاقتصادية وغيرها، ولا يمكن حشرها في إطار حركة بعينها، أو دراستها من خلال التركيز على فضاءها الأيديولوجي فقط، أو أجنداتها السياسية، أو ممارسات بعض تشكيلاتها للعنف.

تعطي هذه المقاربة - كما يرى الكاتب - مساحةً أوسع للبحث الميداني، وتبتعد عن تناول الأسلمة كشأن أيديولوجي، وتركز على دراستها كحركة اجتماعية، وتسلط الضوء على تفاصيل نشاطها اليومي المنظم، ومؤسساتها المختلفة، وتقدم تفسيراً لنجاحها في تعبئة قطاعات جديدة من السكان، وقدرتها على إيجاد روابط تضامن اجتماعية جديدة، وبناء مؤسساتها الاجتماعية الموازية للجهد الحكومي الرسمي.

أوسلو، مركز فافو للدراسات الدولية، ٢٠١٠. ٦٣ صفحة.

عرض: عوني فارس.
صدر حديثاً عن مركز فافو للدراسات الدولية في أوسلو دراسة حول الحركة الإسلامية والتعليم في فلسطين، وهي خلاصة لثلاث أوراق بحثية، جمعت بين الجهد الميداني والدراسة النظرية، ورصدت تجربة المدارس الخاصة الإسلامية التابعة للجمعيات الخيرية الإسلامية في الضفة الغربية وقطاع غزة. وقد قام بنحت صيغتها النهائية الباحث النرويجي جاغوب هيكلت، وهو متخصص في شؤون الشرق الأوسط، وله العديد من الدراسات حول القضية الفلسطينية.

تأتي هذه الدراسة ضمن سلسلة تقارير المركز حول القضايا الساخنة وبؤر التوتر في العالم. وهذه السلسلة هي جهد بحثي، يستهدف رفد صانع القرار في النرويج بالمادة البحثية اللازمة لصياغة موقفه السياسي وإستراتيجيته العملية.

جاءت الدراسة في مقدمة وأربعة فصول وخاتمة، وركّزت على ثلاثة محاور رئيسية هي: المدارس الإسلامية الخاصة من حيث طبيعتها ووظيفتها الاجتماعية، ودورها وأهميتها داخل النظام التعليمي الفلسطيني الرسمي، وأخيراً مدى ارتباطها من ناحية الأهداف والممارسة بالأيدولوجية السياسية لحركة حماس.

* مدرّس وباحث مقيم في رام الله.

المدارس الإسلامية الخاصة والأسلمة

يكتسب هذا الفصل أهمية كبرى، كونه يناقش طبيعة العلاقة بين المدارس الإسلامية الخاصة وحركة حماس كجسم تنظيمي له أجدته الاجتماعية والفكرية والسياسية. وقد جاءت خلاصات الدراسة على النحو التالي:

1. إن المدارس الإسلامية الخاصة التابعة للجمعيات الخيرية الإسلامية في فلسطين هي مبادرات محلية مرتبطة بجمعيات محلية، وتعمل باستقلالية إلى حد كبير، عن أية أطر عامة لحزب أو حركة أم. وهي تتشابه في أهدافها وآليات عملها في الضفة الغربية وقطاع غزة، مع اختلاف بسيط في القطاع يتعلق بحضور لافت للخطاب الإسلامي السياسي، رغم أن تأثيره على مجمل العملية التعليمية يبقى محدوداً جداً.
2. تحصل هذه المدارس على مراتب متقدمة من ناحية نوعية التعليم، والتحصّل الأكاديمي لطلابها، وقد نجحت في تقديم تعليم أفضل للأيتام والفئات الاجتماعية الضعيفة، وساهمت في حل إشكاليات تتعلق بالقدرة الاستيعابية للجهاز التعليمي الرسمي.
3. تعتبر هذه المدارس جزءاً من نضال اجتماعي ثقافي ضد القيم الأجنبية التي يرى كثيرون بأنها تهدد المجتمع المسلم. وهي مؤشر على قوة المجتمع المدني ورافد أساسي للعمل الأهلي في ظل الاحتلال ووجود حكومة فلسطينية غير قادرة على الوفاء بالتزاماتها كاملة تجاه التعليم.
4. بعد دراسة ميدانية واسعة في الضفة الغربية وقطاع غزة وشملت هذه المدارس من حيث نشاطاتها اللامنهجية، وفهمها الذاتي للعملية الإدارية والتعليمية، ومدى استقلالية قراراتها، وأدبياتها) مجلات المدارس ونشراتها)، والبيئة الصفية، وأعمال الطلبة الكتابية واليدوية، والمواد التعليمية الإضافية وغيرها، تبين أنها ذات صبغة مهنية، وسبق تأسيسها تبلور المشروع السياسي الإسلامي الفلسطيني بصيغته الوطنية.
5. رغم أن هذه المدارس جزء أصيل من تعبيرات الأسلمة في فلسطين وتتبنى رؤية دينية إيمانية تتقاطع مع رؤية حركة حماس، ويمكن أن تتلقى تمويلاً من جهات حماسوية، وقد ينتمي كادرها الإداري

أما بخصوص الأسلمة والتعليم، فإن المقاربة الجديدة تضع علامات استفهام كبيرة على جُل الدراسات الغربية السابقة، التي وضعت تجارب المؤسسات التعليمية الإسلامية في العالمين العربي والإسلامي، على تنوعها واختلاف ظروف نشأتها وأهدافها، في سلة واحدة. واعتادت تناولها من زاوية الاقتراب أو الابتعاد عن "الإرهاب"، وافترضت بأن انخراط الحركات الإسلامية – بما فيها الحركة الإسلامية في فلسطين- في المجال التعليمي مرتبط برغبتها في "تسويق رؤيتها الأصولية المتشددة تجاه الغرب، ونشر عقيدتها القتالية، ومحاولة تجنيد مقاتلين جدد في صفوفها على استعداد لتنفيذ هجمات ضد أهداف غربية مدنية".

المدارس الإسلامية الخاصة والتعليم الفلسطيني

يشير الكاتب إلى أن الحكومة الفلسطينية هي المسؤولة بشكل كلي عن قطاع التعليم في الضفة الغربية وقطاع غزة، وتخضع مشاركة القطاع الخاص في التعليم لقوانين وزارة التربية والتعليم. ويبين الكاتب بأن النظام التعليمي الرسمي لا يستند إلى بنية فكرية علمانية خالصة، بل يقوم على رؤية تجمع "معتدل" بين التوجهات الدينية والثقافة القومية، وتدعو إلى الانفتاح، وترى في تطوير نوعية التعليم المهمة الرئيسة لجهاز التعليم الحكومي، وتؤمن بدور القطاع الخاص في تحقيق هذه المهمة. وحسب الكاتب، فإن المدارس الإسلامية الخاصة في فلسطين ذات طبيعة خيرية، تستهدف فئات بعينها كالأيتام، رسومها منخفضة مقارنة بالمدارس الخاصة الأخرى، تتلقى تمويلاً محلياً وخارجياً. وتتبع بالكامل النظام التعليمي الفلسطيني الرسمي، فتدرس المنهاج الفلسطيني الجديد وتخضع لتفتيش وزارة التربية والتعليم. أما أهدافها فتتمحور حول رفع مستوى ونوعية التعليم داخل المجتمع الفلسطيني وقرس القيم الدينية. وتعمل على إدارتها هيئات من صلب البيئة المحلية، مشهود لها بالكفاءة، وحصلت على ثقة الجماهير والمؤسسات التعليمية الرسمية.

إلى حركة حماس، إلا أنها ليست مرتبطة بمشروع حماس السياسي، وليس لديها أجنادات تغييرية، ولا تلتزم مطلقاً بما نصّ عليه ميثاق حركة حماس حول التعليم، وهي بشكل أساسي تعبيرٌ عن التزام ديني محض تجاه فئات الأيتام، له شواهد الغنية في التاريخ الإسلامي.

٦. لم تقتصر معاناة هذه المدارس على إجراءات الإحتلال الإسرائيلي، ولكنها تأثرت سلباً بحالة الانقسام السياسي التي شهدتها الأراضي الفلسطينية، وأدت إلى تعرضها في الضفة الغربية لمضايقات كثيرة جلبت لها مشاكل داخلية على المستويين الأكاديمي والتمويلي، كما أنّ سياسة "الحرب على الإرهاب" التي انتهجتها الولايات المتحدة قد أثرت هي الأخرى، حيث أصبح ممولوها في دائرة الاستهداف.

٧. إن المدارس الخاصة الإسلامية شبيهة بشكل كبير بالمدارس الخاصة المسيحية في النرويج، سواءً من ناحية الأهداف المتعلقة بنشر القيم الدينية والأخلاقية، أو من ناحية بيئة العمل التي تسيطر عليها قوانين ولوائح إدارية حكومية، أو من جهة قبول قطاعات من الشعب لوجودها.

كلمة أخيرة

جاء نص هيكلت متحرراً من وطأة السياسة وجدليات التاريخ وسطوة المقاربة الغربية التقليدية حول الإسلام وتعبيراته الحركية، وكانت بوصلته الواقع كما هو، لا كما تريده آلة الإعلام الغربي، مما ترك أثره الواضح على النتائج. على أنه، وإن كانت الدراسة قد أنصفت المؤسسات التعليمية الإسلامية في فلسطين، فإن أثرها على رؤية النخب الفكرية والأكاديمية الغربية، ناهيك عن الوعي الجمعي للشعوب الغربية والموقف الرسمي لحكوماتها، بحاجة إلى وقت أطول مما يعتقده البعض أو يتمناه هيكلت نفسه. أمّا بالنسبة للفلسطينيين، فإن قطاعاً واسعاً منهم يتمنى للتعليم الأهلي الإسلامي الاستمرار في مسيرته، بل وتطوير خدماته بما فيه المنفعة للشعب الفلسطيني.